آخر اللغات إلى قيام الساعة؛ ولا لغة بعدها، هي اللغة العربية

نستطيع أن نؤكد أنه في سنة (1427هـ = 2006م) يكون قد مضى على وحدة العربية - في صورتها الأخيرة - حوالي ألفي سنة. منها 1438 سنة ثابتة ومؤكدة من بداية نزول القرآن الكريم[1]، الذي أنزله الله بلسان عربي مبين للعرب كافة. ونرجح أن اللغة العربية قد توحدت أكثر لهجاتها أو كادت من زمن بعثة عيسى عليه السلام[2]. وسوف تبقى اللغة العربية في صورتها الأخيرة، باقية إلى قيام الساعة.. فالأدباء سنة 2006م يعبرون عن أفكارهم بالصورة نفسها التي عبر بها الشعراء في بداية العصر الإسلامي، أو في العصر الجاهلي.. وما زال الناسُ سنة 2006م يفهمون بعض ما يُتلى عليهم، أو كله، مما قيل في صدر الإسلام، أو قبله.

.. فقد تكفل الله بحفظ القرآن: وتتعدد صور هذا الحفظ ووسائله، منها ما نعرفه، ومنها ما هو في علم الله.. ومن ذلك خلق الله الميل في نفوس المسلمين للتسابق إلى حفظ القرآن أو بعضه في الصدور، وإلى التعبد بقراءته، وتدبر آياته في أيام وشهور السنة كلها، وفرض تلاوة جزء منه - أقلها: الفاتحة - في الصلاة عمود الدين، وهي مفروضة على المسلمين، خمس مرات في اليوم والليلة، وأقلها سبع عشرة ركعة، ناهيك عن السنن الراتبة، والنوافل.. وحرصُ الناس على فهم القرآن

---

(1) قال صفيّ الدين المباركفوري في كتاب «الرحيق المختوم»: بعد النظر والتأمل في القرائن والدلائل يمكن أن نحدد يوم نزول القرآن بأنه كان يوم الاثنين 21/ رمضان ليلاً، ويوافق 10/ 8/ 610م. وكانت الهجرة يوم الاثنين الثامن ربيع الأول سنة 14 من النبوة، وهي السنة الأولى من الهجرة الموافق 23/ 9/ 622م.. وهو يوم وصول النبي محمد ﷺ المدينة ونزوله في «قباء» بجوار المدينة النبوية.

(2) قال ابن سلام في كتاب «الطبقات» ص 27: «وإنما قُصِّدت القصائد، وطُوِّل الشعر على عهد عبد المطلب، وهاشم بن عبد مناف». فقال محمود شاكر: هكذا يرى ابن سلام وغيره من المتقدمين، وهو عندي باطل، فالشعر أقدم مما يزعم، وطويله أعتق مما يتوهم. هذا ويقدر زمن هاشم نحو (500م) 127 قبل الهجرة.

يدعوهم إلى قراءة هذا الميراث الكبير الغني، في الحديث النبوي، والفقه، والأدب واللغة، والتاريخ.. إلخ. والكلام على تأثير القرآن في هذا التراث، وضرورة قراءَة هذا التراث لفهم القرآن، باب واسع، لا يُستوفى إلا في مجلدات.. وتأثير هذا كله في حفظ اللغة العربية وديمومتها ظاهرٌ إن شاء الله تعالى..

مع العلم أن ما يُسمى «اللهجات العاميّة» ليست خارجة كلّ الخروج على (اللغة العربية)، ذلك أن المفردات المستعملة عربية في معظمها، بعضها يوافق المفردات التي تستعمل في التعبير الفصيح، وبعضها حصل فيه شيء من التحريف، إما بالنحت، وإما بالتقديم والتأخير بين الحروف.. وفي كثير منها تمثل لهجات عربية لم تستوعبها اللغة العربية الأخيرة..

• وتتابع الجنس العربي في بلاد الشام وفلسطين، طبقة بعد طبقة، وشعباً في إثر شعب، وقبيلة تتفرع عنها قبائل، والعروبة لم تتخلَّ عن أرض الشام وفلسطين، زادها الإسلام العربيّ رسوخاً وتأكيداً وثباتاً:

إنَّ الذي سمك السماء بنى لنا ... بيتاً دعائمه أعزُّ وأطولُ

فادفع بكفّك إن أردتَ بناءَنا ... ثهلان ذا الهضبات هل يتحلحلُ[1]

.. تتابعت الأجيال، يدخل القديم في الجديد، ولا يبيد[2]، ويمدُّ الجديدُ القديم في صورة شعوب جديدة، وقبائل متشعبة، ذات جذور موغلة في الزمن القديم، موصولة بأول المؤسسين لحياة على أرض الشام وفلسطين، وهم أصل العرب، وليس لأحد جذور في هذه الأرض غير العرب..

---

(1) البيتان للفرزدق في الفخر. وثهلان: جبل. يريد: إن مجد القبيلة، مثل جبل ثهلان، يستحيل نقله عن مكانه. و«أعزّ» و«أطول» في البيت الأول، ليست للتفضل، وإنما هي بمعنى عزيزة وطويلة، صفة مشبهة تدلّ على الثبات.

(2) ونحن نرفض مقولة «العرب البائدة، والعرب الباقية»، فالبائدة: هي القبائل التي ضاع نسبها، وانقرض مَنْ ينتسب إليها؛ لاندماجها في الأمم والشعوب التالية، فلا يقال: هذا كنعاني، وهذا يبوسي، وهذا آرامي.. لأن الكنعانيين دخلوا في الآراميين، والآراميين دخلوا في الاسم الأخير (العرب)، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: 8].

ومهما اختلفت الأسماء، فهي أسماء شعوب وقبائل، لأب واحد أو أمة واحدة، هم «العرب».

وقد كتبنا في صفحات سابقة أسماء بعض الشعوب التي سادت ودام وجودها، وتجذرت في بلاد الشام وفي فلسطين، يدخل الشعب القديم في الشعب الجديد، الجديد في الولادة، أو الجديد في الانتشار والسيادة، ويأخذ القديم اسم الشعب الجديد، إلى أن جاء العرب المسلمون، أو المسلمون العرب، فدخل الجميع في عروبة الإسلام، أو في الإسلام العربي.

والعرب المسلمون أو العرب الذين أسلموا، لم يأتوا جميعاً إلى بلاد الشام وفلسطين من خارجها، وإنما كان جلهم في وطنهم ـ الشام وفلسطين ـ قبل الإسلام بزمن بعيد؛ حيث أخذت البلاد تتعرب ـ بلسان عربي مبين ـ تمهيداً لعودة الوحدة واللُّحمة إلى الأمة، في نجدها، وحجازها، ويمنها، وشامها؛ فالتقى العرب المسلمون الذين جاؤوا من الحجاز ونجد واليمن مع مَنْ سبقوهم إلى تلك الديار، بعد غربة، وطول فراق. تقبض قبضة من تراب أرض الشام وفلسطين، من أيّ مكان شئت تفتتها، وتحللها، وتستنطقها، فلن تجد ذرة منها، إلا وهي تنطق معلنة: «أنا العربيّ» وتنادي:

صاحِ هذي قبوركم تملأ الرحْـ ـبَ فأين القبورُ من عهد عاد

خففوا الوطء ما أظنُّ أديمَ الْـ أرض إلا من هذه الأجساد

وقبيح بكم وإن قدم العهـ ـدُ هوان الآباء والأجداد